الفصل الرابع
عصر تيمور وخلفائه

يعتبر عصر تيمور وخلفائه من أزهى عصور التصوير الفارسى، فقد كان مجىء هذا الفاتح التترى واتخاذه سمرقند عاصمة لملكه منذ سنة ٧٧٢هـ (١٣٧٠) فاتحة لهدوء نسبى ساد بلاد إيران، التى عرفت فى عهده وعهد ابنه وخليفته شاه رخ [٧٠٨-٨٥٠هـ (١٤٠٤-١٤٤٧)] سلامًا لم تكن عرفته منذ مدة طويلة؛ وقد كان تيمور على فظاظته وقساوته محبًا للفن والأدب، مغرمًا بقراءة أشعار حافظ ونظامى، وكان هو وخلفاؤه من أكبر المشجعين للفنانين والعلماء والأدباء.

وقد مهدت العصور السابقة لهذا العصر، فكانت فيها مراحل الاقتباس والاختيار والتأثر الكبير بالفنون الأجنبية، وقدر لعصر تيمور وخلفائه أن يشهد ازدهار طراز إيرانى قوى إلى حد كبير، وغنى بما اكتسبه من صناعة الشرق الأقصى، وأصبح جزءاً أساسيًا فيه.

وفى المصادر التاريخية أن تيمورلنك عمل على أن يجمع فى عاصمته سمرقند أكبر عدد ممكن من الفنانين والفنانين والصناع، فنقل إليها مئات المصورين من بغداد وتبريز وغيرهما من البلاد التى استولى عليها. ومع ذلك فقد ظلت بغداد وتبريز مركزين لصناعة التصوير؛ وإن يكن التاريخ قد حفظ لنا اسم مصور بغدادى شهير هو عبد على عاش فى بلاط سمرقند، فأكبر الظن أن هذه المدينة لم تبلغ فى عهد تيمور ذلك المركز الكبير الذى بلغته هراة منذ أوائل القرن الخامس عشر فى عهد شاه رخ وخلفائه.

فالواقع أنه يكاد لا يكون لدينا مخطوطات مصورة فى سمرقند منذ عهد تيمورلنك، ولكن فى المكتبة الأهلية بباريس مخطوط ينسب إلى هذه المدرسة، وهو رسالة فى علم الفلك كتبت بسمرقند فى النصف الأول من القرن التاسع

الهجرى (الخامس عشر) لمكتبة أولوغ بك ابن شاه رخ، وحاكم بلاد ما وراء النهر من سنة ٨١٢هـ (١٤٠٩) إلى سنة ٨٤٩هـ (١٤٤٦)، وكان هذا الأمير قد أسس فى سمرقند مرصداً شهيراً جمع فيه كبار المشتغلين بعلم الفلك[١].

وفى متحف المتروبوليتان بنيويورك مخطوط فلكى آخر مزين بخمسين صورة للبروج والنجوم، وترجح ملابس الأشخاص وتفاصيل الصناعة أن يكون هذا المخطوط قد كتب أيضًا بسمرقند فى عهد أولوغ بك[٢].

على أن هناك مخطوطين فى المتحف البريطانى يرجع عهدهما إلى عصر تيمور نفسه، ويمثلان حلقة الاتصال بين المدرسة الفارسية التترية وبين مدارس التيموريين.

وأول هذين المخطوطين نسخة من قصائد خواجو كرمانى يشرح فيها غرام الأمير الفارسى همای بهمايون ابنة إمبراطور الصين[٣]، وقد كتبه الخطاط الفارسى الشهير مير على التبريزى فى بغداد سنة ٧٩٩هـ (١٣٩٦)؛ وعلى إحدى صوره توقيع الفنان الفارسى جنيد السلطانى الذى كان فى خدمة السلطان أحمد من السلاطين الجلائيريين ببغداد[٤].

والمخطوط الثانى يرجع إلى العهد نفسه ويشمل عدة قصائد منها تاريخ منظوم كتبه أحمد التبريزى لفتوح جنكيزخان.

---

(١) راجع ... Migeon : Manuel ج١ ص١٥٦ وBlochet : Musulman Painting من اللوحة ٨٨ إلى ٩٣.

(٢) انظر ... Dimand : A Handbook ص٢٧.

(٣) قارن Sakisian La : Miniature Persane ص ٣٢ و Migeon: Mannuel ج١ ص١٥٢.

(٤) انظر اللوحات ١٠ و١١ و١٢.

وفى صور هذين المخطوطين كثير من الصفات الزخرفية التى أصبحت فيما بعد من مميزات مدرسة هراة فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر)، فالأشجار الطويلة والمناظر الطبيعية ذات الجبال والتلال المرسومة على شكل الإسفنج، والنباتات الصغيرة التى تزيد فى زخرفة الصورة وتمنحها طابعًا خاصًا، والألوان القوية التى لا يكسر من حدتها أى تدرج، كل هذا يفرق بين صور هذين المخطوطين وبين الصور الأولية فى القرن السابع والثامن (القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر).

على أن الأفضل أن لا ننسب صور هذين المخطوطين إلى أى مدرسة تيمورية، إذ الواقع أنها تمثل آخر تطور للمدرسة التترية. فعصر المغول يمتد إلى أوائل القرن التاسع (الخامس عشر)، وأسرة الجلائيريين المغولية التى حكمت فى العراق واتخذت بغداد عاصمة لها جعلت هذه المدينة تترية طول القرن الثامن (الرابع عشر) وجزءًا من القرن التاسع (الخامس عشر) بالرغم من استيلاء تيمور عليها سنة ٧٩٥ (١٣٩٣).

وفى المصادر التاريخية أن السلطان أويس من أواخر ملوك أسرة الجلائيريين، كان من الملوك الذين عالجوا التصوير وأصابوا فيه نجاحًا كبيرًا.

فالشبه إذن بين هذه الصورة وبين الصور التيمورية يرجع إلى أن الأولى تمثل، كما ذكرنا، حلقة الاتصال بين المدرسة الفارسية التترية وبين مدارس التيموريين، والواقع أن تيمور نفسه، بالرغم من غرامه بالفنون الجميلة، لم يكن السبب المباشر فى نشأة الطراز التصويرى الذى ننسبه إلى العصر المسمى باسمه، والذى هو نمو طبيعى لفن التصوير فى القرن الثامن (الرابع عشر). لم تكن لذلك الفاتح يد كبيرة فيه؛ ولكن الذى يجعل هذه التسمية عادلة هو الرعاية السامية التى شمل بها خلفاء تيمور المصورين وفن التصوير.

(شكل ١٤)

حبيبان

من مخطوط من منظمات خواجو الكرماني بالمتحف البريطاني تاريخه سنة ٧٩٩هـ – عن مارتن

(شكل ١٥)

منظر فى حديقة

من مخطوط من منظمات خواجو الكرمانى بالمتحف البريطانى تاريخه سنة ٧٩٩هـ - عن مارتن

اللوحة رقم (١٢)

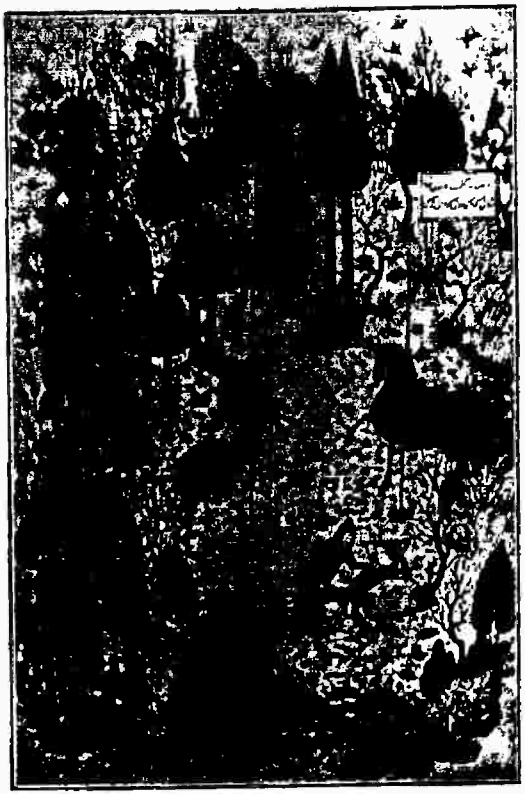

(شكل ١٦)

فارسان وحصانان يتقاتلان

(شكل ١٧)

منظر فى حديقة

للمصور جيند النقاش فى بغداد سنة ٧٩٩هـ

من مخطوط من منظمات خواجو الكرمانى بالمتحف البريطانى

وفى دار الكتب المصرية نسخة من الشاهنامة للفردوسى كتبها لطف الله بن يحيى بن محمد فى شيراز سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٣)؛ وفيها صحيفة مزخرفة وسبع وستون صورة مصغرة تشبه فى الصناعة وفى طراز المناظر الطبيعية والملابس والسحنة مخطوطا من كليلة ودمنة محفوظا الآن فى المكتبة الأهلية بباريس[١].

وفى مجموعة المستر شستر بيتى Chester Beatty شاهنامة أخرى كتبت فى شيراز سنة ٨٠١هـ (١٣٩٧)، وكانت فى مجلد واحد مع جزء من مخطوط محفوظ الآن بالمتحف البريطانى - ويشمل عدة قصائد على نمط الشاهنامة - وصور هذين المخطوطين أدق صناعة من الصور الموجودة فى شاهنامة دار الكتب المصرية؛ فألوانها أكثر تناسبًا، ورسومها أكثر تنوعًا وإبداعًا.

وقصارى القول أن مجموعة المخطوطات التى كتبت فى آخر القرن الثامن الهجرى (السنين العشر الأخيرة من القرن الرابع عشر) لها ميزات لا يستهان بها؛ ففيها تظهر الألوان الساطعة، ومناظر الحدائق والزهور والربيع، التى أصبحت بعد ذلك من خصائص الفن الفارسى. وقد وصل الفنانون فيها إلى إيجاد نسبة جميلة للأشخاص، وتوافق حسن بين متن المخطوط وبين الصور المصغرة. وفى بعض هذه الصور رسوم لمنسوجات وسجاد لم يصل إلينا منه شىء. ولا ريب أن أكبر الفضل فى العناية بالتصوير الفارسى فى هذه المرحلة يرجع إلى السلاطين الجلائريين.

---

(١) راجع Binyon, Wilkinson & Gray: Persian Miniature Painting ص٦٢.

مدرسة هراة

على أن التصوير الفارسى يصل إلى العصر الذهبى فى عهد خلفاء تيمور: ابنه شاه رخ، وأحفاده: بيسنقر، وإبراهيم سلطان، وإسكندر بن عمر شيخ.

ولا غرو فقد أصبح فى عصرهم وحدة قوية تمثل الروح الإيرانية، ويصعب كشف العوامل الأجنبية فيها.

وقد أدى النظام السياسى لإمبراطورية تيمورلنك إلى نشأة مراكز فنية عديدة؛ فبينما كان فى عاصمة الدولة إمبراطور يشرف على إدارتها، كان فى الأقاليم المختلفة أمراء يحكمونها ويجعلونها أشبه شىء بممالك مستقلة متحدة، وكان لكل أمير منهم بلاطه، وفى بعض الحالات نظامه الوراثى للحكم على النحو المتبع فى عاصمة الإمبراطورية نفسها. فترى مثلاً أن شاه رخ كان حاكمًا على خراسان فى حياة والده تيمورلنك، ولما توفى هذا خلفه ابنه وظل مقيمًا فى خراسان، واتخذ هراة عاصمة لملكه، وعين أولوغ بك حاكمًا على بلاد ما وراء النهر ومقره سمرقند، وإبراهيم سلطان حاكمًا على شيراز وإقليم فارس.

وكان شاه رخ ملكًا رشيداً، عرفت إيران فى عصره السكينة والهدوء، وأصبحت هراة مركزًا كبيراً لصناعة التصوير، وأسس فيها الإمبراطور مكتبة واسعة، ولما نصب ابنه بيسنقر حاكمًا عامًا على إقليم هراة، أسس الابن مكتبة أخرى ومجمعًا للفنون، جمع فيه المصورين والمذهبين والخطاطين والمجلدين؛ فلعب هذا المجمع دوراً كبيراً فى صناعتى التصوير والتذهيب اللتين انتقلتا من شيراز وتبريز وسمرقند إلى هراة.

ولم تبلغ العلاقات بين إيران وبلاد الشرق الأقصى من الود فى وقت من الأوقات ما بلغته فى عصر شاه رخ؛ فتبودلت البعثات، ولعل ذلك يرجع إلى تغيير الأسرتين الحاكمتين، فكما انتهى حكم المغول فى فارس فى أواخر القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر) انتهى أيضا فى الصين حكم أسرة يوان Yuan المغولية (١٢٨٠-١٣٦٧) وخلفتها أسرة منج Ming (١٣٦٨-١٦٤٤).

ومما يلفت النظر أن بيسنقر ضم إلى إحدى هذه البعثات التى سافرت إلى الصين حول سنة ٨٢٣هـ (١٤٢٠) مصوراً اسمه غياث الدين، كلفه بأن يصف كل ما يراه فى طريقه، وقد فعل غياث الدين ذلك، ونقل إلينا وصفه كمال الدين عبد الرازق فى كتابه «مطلع السعدين» الذى ترجمه إلى الفرنسية المستشرق كترمير Quatremere. وليس بعيداً أن يكون غياث الدين قد اصطحب معه فى عودته بعض الفنانين الصينيين أو شيئًا من صورهم[1].

ومهما يكن من شىء فقد كانت الصور والرسوم معروفة فى إيران حق المعرفة، يقدرها الأمراء ورجال الفن ويلحون فى طلبها، وقد كان لذلك تأثير كبير يصعب علينا إيضاحه وكشفه؛ ولكننا نلمسه ونجزم بوجوده حين نرى الدقة التى وصلت إليها صناعة التصوير فى مدرسة هراة. على أنه قد وصل إلينا بعض صور نرى فيها العوامل الصينية والإيرانية جنبًا لجنب، لم تختلط ولم تكون وحدة قوية كما كانت فى المدارس التيمورية، وأوضح هذه الصور واحدة رسم فيها فرع شجرة وعليه عصفور يكاد المرء يظنها من صناعة عصر منج Ming فى الصين، ثم رسم تحتها خسرو وشيرين الحبيبين الإيرانيين بملابس فارسية ووجهين صينيين، حتى لقد يعجز مؤرخو الفن عن الجزم بأن

---

(١) Binyon, Wilkinson & Gray: Persian Miniature Painting ص٥٦ - ٥٧.

صانع هذه الصور فارسى قلد الصناعة الصينية، أو صينيا قلَّد الصناعة الفارسية[1].

ولكن أظهر ما يكون التأثير الفارسى فى فن العصر التيمورى هو فى التجليد الذى تزينه حيوانات الفن الصينى[2].

ومن مميزات الصور المصغرة فى مدرسة هراة رسم الرؤوس الآدمية الحيوانية فى زخرفة الفروع النباتية على النحو الذى نعرفه فى الصور المصغرة الأرمنية، التى يَرجع تاريخها إلى أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن (أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر).

ومن أهم الصور المنسوبة إلى مدرسة هراة واحدة فى متحف الفنون الزخرفية فى باريس، تمثل وصول الأمير همای إلى بلاط إمبراطور الصين؛ ويرجع تاريخها إلى نحو سنة ٨٣٤هـ (١٤٣٠)، وفيها مزيج متناسق من رشاقة الصناعة الفارسية ومن جمال الفن الصينى فى عصر منج[3].

على أن أثر اختلاط الأساليب الصينية فى عصر منج Ming بالتقاليد الفنية الفارسية لا يصعب تبينها فى صور مخطوط معراجنامه المحفوظ الآن بالمكتبة الأهلية فى باريس، والذى كتب لشاه رخ فى هراة سنة ٨٤٠هـ (١٤٣٦). وأكثر هذه الصور مربع الشكل ومستقبل عن متن المخطوط، ويرى فيها النبى ﷺ ممتطيًا صهوة البراق، يتقدمه سيدنا جبريل، أو تحيط به الملائكة، يسير فى السموات، أو يقابل غيره من الرسل. ويلاحظ فى رسوم

---

(١) انظر اللوحة ١٦ شكل ٢١.

(٢) انظر اللوحة ١٨ شكلى ٢٤ و ٢٥.

(٣) انظر اللوحة ١٤ شكل ١٩.

الملائكة أن وجوههم مستديرة، وعيونهم صغيرة منحرفة تكشف عن تأثير السحنة الصينية فى المصور، كما يظهر تأثره بالفن الصينى فى الشكل التقليدى الذى يرسم عليه السحب، بينما نرى فى وجوه النبى وأصحابه انسجاما ورقة ينمان عن صناعة إيرانية عربية. وهذه الصور فى مجموعها جميلة زادها اللونان الأزرق والذهبى روعة وبهاء، ولكن تكرار الموضوعات جعلها لا تسلم من الملل(١).

وشبيه بهذه الصور فى الصناعة اثنتا عشرة صورة مصغرة فى متحف المتروبوليتان بنيويورك، وهى من شاهنامة يحتمل إرجاعها إلى النصف الأول من القرن التاسع (الخامس عشر). ومن أبدع هذه الصور واحدة تمثل رستم يمسك فرسه رخش، وإلى جانبهما شجرتان مرسومتان على الطريقة الصينية، وتطير فوقهما أوزتان. وتمثل صورة أخرى كيكاوس يحاول الطير فى السماء بوساطة نسرين يربطهما فى عرشه(٢).

وفى متحف المتروبوليتان مخطوط آخر من منظومات نظامى (الخمسة) كتب فى سنة ٨٥٣هـ (١٤٤٩)، وفيه ثلاثون صورة تمتاز بألوانها الزاهية؛ ولعل أكثر ما يلفت النظر فيها صورة فرهاد يحمل عشيقته شيرين وحصانها الذى تركبه(٣).

هذا ويجب ألا يدور بخلدنا أن هنالك فرقًا يذكر بين الصور المصنوعة فى هراة والصور التى صنعت فى غيرها من المدن الإيرانية كشيراز مثلاً، والتى

---

(١) راجع Migeon: Manuel ج١ ص ١٥٦ وE. Blochet; Les Enluminures des Manuscrits Orientaux de la Bibliothèque Nationale ص ٨٣ - ٨٥.

(٢) راجع Dimand : A Handbook ص٢٨.

(٣) راجع Dimand : A Handbook ص٢٩.

ترجع أيضًا إلى عصر تيمور وخلفائه؛ فإن سياسة الحكم فى عهدهم كانت ذكرنا أكبر مشجع على نشأة المراكز الفنية فى أقاليم الإمبراطورية المختلفة، التى كان يتولاها أفراد من الأسرة المالكية؛ وكان ذلك أيضًا داعيًا إلى تبادل كبار الفنانين، ولعل أشهرهم كان أكثرهم تنقلاً، بينما كان نصيب الفنانين العاديين البقاء فى مواطنهم حيث تسود أعمالهم مسحة ريفية، نراها مثلاً فى مخطوط للمنظومات «الخمسة» لنظامى، محفوظ الآن فى جامعة إبسالاً، ويرجع تاريخه إلى سنة ٨٤٣هـ (١٤٣٩) [١].

وفى القسم الإسلامى من متاحف برلين صور من مجموعة أشعار فارسية كتبها سنة ٨٢٣هـ (١٤٢٥) فى شيراز محمود الكاتب الحسينى لمكتبة الأمير بيسنقر؛ وأجمل هذه الصور اثنتان: واحدة تمثل خسرو يعثر على شيرين، والأخرى تمثل الحرب بين جنود كسرى برويز وبهرام جوبين[٢].

وقد كانت الصور المنسوبة إلى عصر تيمور لا يعرف منها إلا عدد قليل، حتى كان معرض الفن الفارسى فى لندن سنة ١٩٣١ فظهر عند الهواة ومؤرخى الفن عدد كبير منها، وكذلك لدى حكومة جلالة الشاه التى أرسلت إلى هذا المعرض أنفس ما عندها. ولا يتسع المجال هنا لدراسة هذه الصور، فنكتفى بأن نحيل القارئ إلى المؤلفات والمقالات التى كتبت عن المعرض المذكور، وخاصة إلى كتاب الصور المصغرة الفارسية الذى كتبه لورنس بنيون وولكنسون وجراى.

---

(١) راجع Binyom, Wilkinson & Gray : Persian Miniature Painting ص٧٣.

(٢) انظر اللوحة رقم ١٣ شكل ١٨ وقارن Kühnel: Islamische Kunst فى الجزء السادس من Springer: Handbuch der Kunstgeschichte، اللوحة السادسة وراجع أيضًا مقال الدكتور كونل فى Jahrbuch der Preusischen Kunstsammlungen الجزء ٥٢ ص ١٣٣ وما بعدها.

وقصارى القول أن فن التصوير فى عصر تيمور وخلفائه نما وترعرع وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الكمال الذى وصل إليه فى عصر بهزاد وتلامذته.

على أنه بعد وفاة شاه رخ سنة ٨٥١هـ (١٤٤٧) دب الانحلال إلى الإمبراطورية التى جاهد طويلا فى سبيل توحيدها وإعلاء شأنها، وأخذ خلفاؤه فى النزاع؛ فما لبث غرب بلاد إيران أن سقط فى يد خصومهم من قبائل التركمان التى تعرف باسم آق قويونلو أو ذوى الخروف الأبيض وقرايونلو أو ذوى الخروف الأسود نسبة إلى شعارهم الحربى. ومات السلطان أبو سعيد سنة ٨٧٣هـ (١٤٦٨) وهو يحاول استرداد هذه الأقاليم. وظهرت إمبراطورية الأوزبك فى بلاد ما وراء النهر، واستطاعت فى آخر القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر) أن تقضى على نفوذ التيموريين فى تلك البلاد وفى شرقى إيران، وبقيت هراة عاصمة خلفاء تيمور ولم تزدها هذه المحن إلا تقدمًا وازدهارًا. فكان حكم السلطان حسين بيقرا ٨٧٣-٩١٢هـ (١٤٦٨ - ١٥٠٦) من أزهى عصور التيموريين، وتسابق إلى هراة رجال الأدب والفن والتاريخ، واستطاع السلطان بعرش أجداده؛ وكان ساعده الأيمن وزيره ورفيق صباه مير على شير الذى كان شاعرًا مثله، وراعيًا كبيرًا للأدباء والعلماء ورجال الفن.

وعلى كل حال فقد ظهر فى خدمة حسين بيقرا ووزيره ميرعلى شير أكبر مصورى الفرس، وأشهر رجال الفن الإسلامى: بهزاد.

***

اللوحة رقم (١٣)

(شكل ١٨)

خسرو يقتل بهرام - المدرسة الفارسية التترية سنة ٨٢٣هـ

من مخطوط مؤرخ لمكتبة الأمير بيسنقر - متاحف برلين

اللوحة رقم (١٤)

(شكل ١٩)

لقاء همای وهمايون فی حديقة القصر

المدرسة التيمورية - الربع الأول من القرن التاسع الهجرى

بمتحف الفنون الزخرفية فی باريس

اللوحة رقم (١٥)

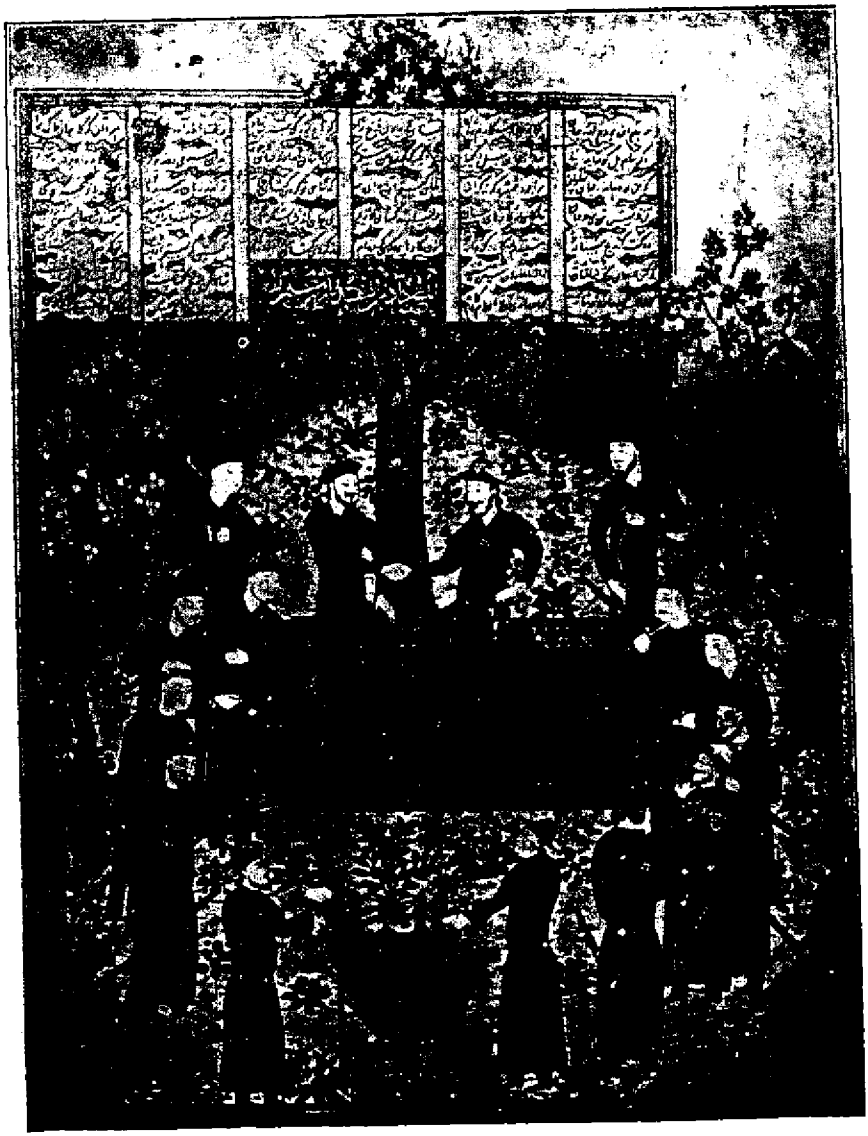

(شكل ٢٠)

رسم واسفنديار قبل أن يتبارزا

المدرسة التيمورية سنة ٨٣٣هـ

من شاهنامة بمتحف كلستان بطهران

اللوحة رقم (١٦)

(شكل ٢١)

خسرو وشيرين

المدرسة التيمورية فى أوائل القرن التاسع الهجرى

مجموعة فيفر

اللوحة رقم (١٧)

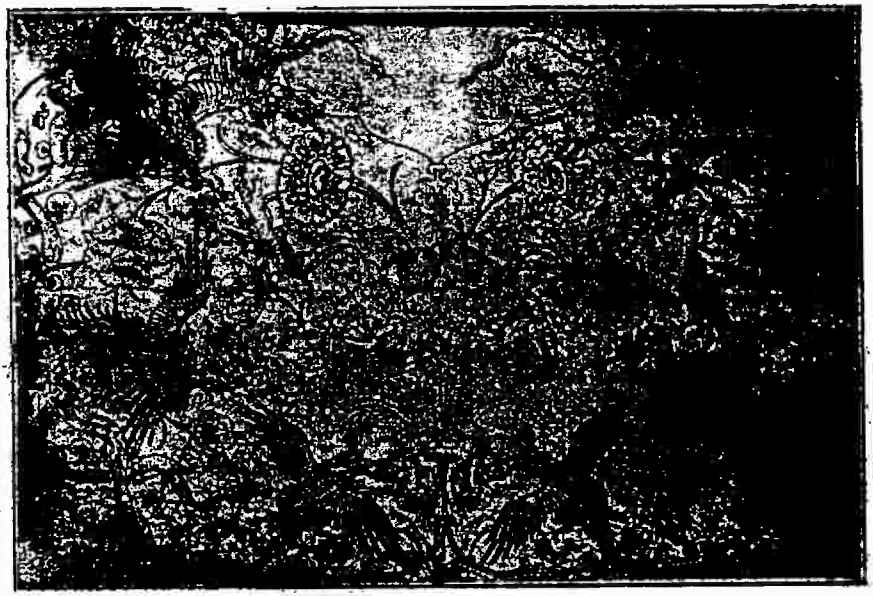

(شكلا ٢٢ و ٢٣)

مدرسة هراة فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى - باستانبول

عن ساكسيان

اللوحة رقم (١٨)

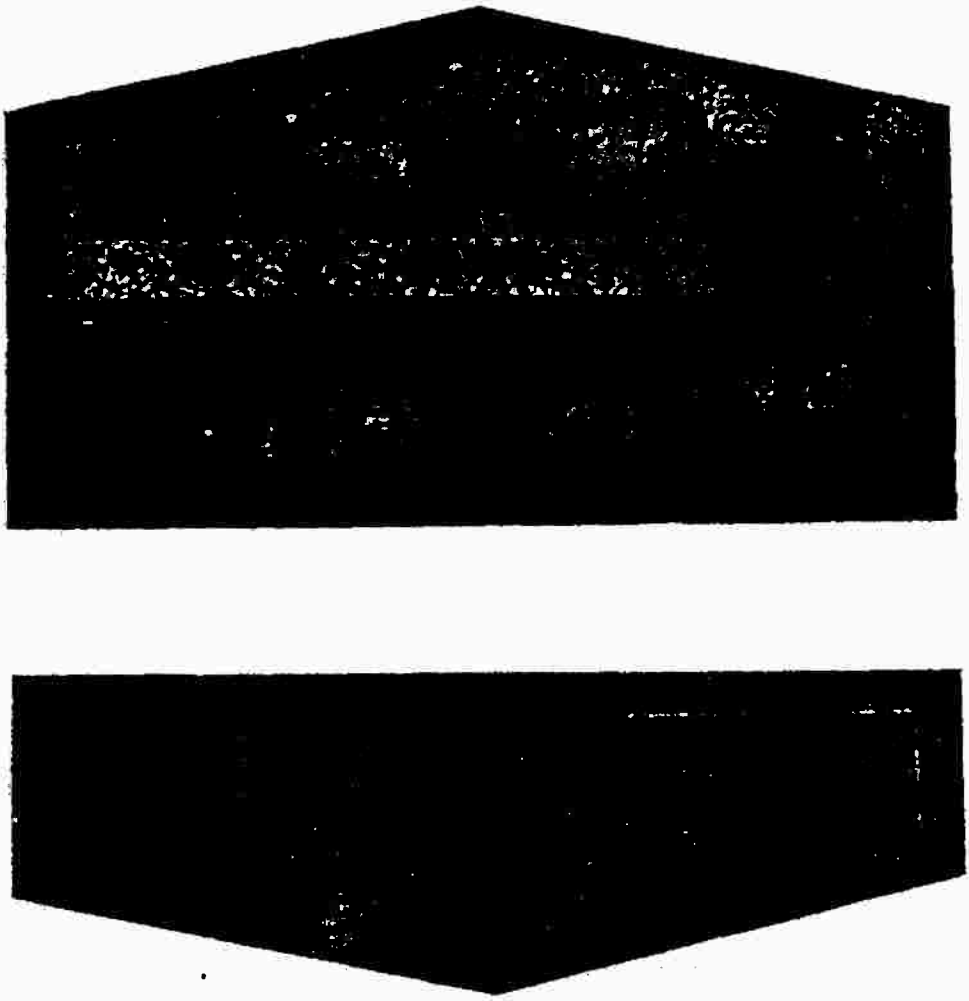

(شكل ٢٤)

لسان بجلدة مخطوط باسم شاه رخ

مدرسة هراة سنة ٨٤٢هـ - مكتبة السراى القديمة باستانبول

عن ساكسيان